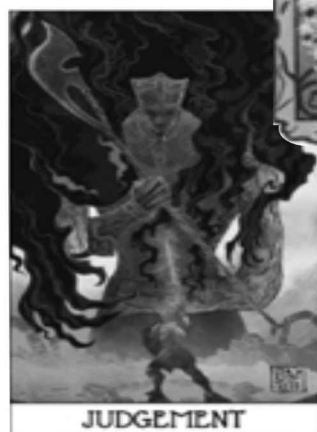


3

عدن تبكي دما

6800 قبل الميلاد - 6000 قبل الميلاد



حشود من البشر نصبوا الحجر على الحجر وصنعوا معبدًا على شكل رأس عجل، وفي يوم القربان تركوا قريتهم وأتوا صفوفًا يحجّون المعبد، ومن بين فكيه المفتوحين دخلوا يمشون في دُلٍّ ثم انحنوا، وعلى منصة مرفوعة بالداخل برز الوثن الأعظم، تمثال من نحاس له جناحان مفردان ورأس بومة، تشتعل بداخله نار مُحْرِقة تتوهج بها عينا البومة، كان ذلك الوثن والمعبد منصوبان قربانًا لي، لينالوا رضاي.

إلى جوار الوثن ارتفعت أيادي شيوخهم اليهود يهتفون باسمي ويترنمون بصفتي، وكلما أتى اسمي «مولوك» في الترانيم.. ذلّت جباه الحشود على الأرض، حتى برزت صرخات لأطفال صغار، يمسك بهم رجال سود ويخلعون عنهم ملابسهم، لم يبالوا بصرخاتهم الصغيرة الفزعة ولا بتلوي أجسامهم وضربات أياديهم وأرجلهم حتى انفتح جوف الوثن كأنه باب فرن، وألقى الرجال السود الأطفال في النار، والتهب جوف الوثن واشتعلت عيناه في لذة، وارتفع صدى صرخات البراءة وقد ذبحتها نواميس الجهل، وهتفت الحشود باسمي، يبيعون لي أرواحهم، ويقربون لي أطفالهم.

لم يكن اليهود قد ابتدعوا هذا، بل إن حضارات قبلهم فعلته وحضارات بعدهم فعلته، وسيظلون يفعلونه حتى تقوم القيامة، وكان بدء كل هذا في وادٍ من وديان أرض القدس يُدعى وادي جهنم، هناك كنت أسكن وما زلت، واذكروا هذا الاسم الذي تذلت له رؤوس البشر في كل زمن، مولوك.

«رأيت الإثم يفيض من روحها فأعجبتني».

منذ أن سمعت بخلق الإنسان وأنا تصيبي غصة مبغضة كلما رأيتهم، حتى دخلت أرض ديجور تلك المرأة الحمراء، لم أعلم يقيناً إذا كانت أفعى أم أنها أشد شراً، نحن نرى هيئات الأرواح، وهيئة روحها بدت كأصلة ذات أنياب، لم تتركها عيني منذ حاولت أن تدخل ربوة جان أكويلو حتى دخلتها ونُفيت منها بعد ثلاث ساعات بعد أن تسببت في طرد الجميع. في ستار من ليل معتم رماها الملائكة في وادي جهنم، وقد كان وادياً جافاً ليس فيه شيء ينبت حتى كادت ليليث أن تموت، لولا أن عقلها الشيطاني هداها لاقتناص الحيوانات البرية الصغيرة، فكانت تأكلها حية وتشرب دماءها، وكان وجهها دوماً ملطخاً بالدم هو وثوبها. هذه المرأة تفوقت على كل أنسال الشيطان في الولع بالإثم، تبعتها كل أيامها في العراء، رأيتها وهي تنقر الدم كالغربان حتى وصلت إلى نهر الأردن بعد شهور عديدة من التيه، وهناك وجدت آدم وحواء، وكم كان المقت المتساقط من عينها لما رأت زواجهما وتحابهما، سكن في حلقتها ألم الغيرة فصار كالشوك يعذبها ليلها ونهارها، واحمرّت عينها الجميلتان بالحق، ولا أدري كيف تكون جميلة ومرعبة في الوقت نفسه. بعض الشياطين يحبون الوسوسة بالأمر، افعل ولا تفعل، أما أنا فمن بين كل بني لاقيس، علمت أن نفس البشري سيئة كفاية، فقط ضع أمامها الحقيقة المجردة من كل شيء وستذهل بما تصنع، وبالنسبة إلى الشيطانة ليليث فقد وجدتني أمامها فجأة بلحيتي الحمراء وهي غارقة في أفكار نفسها الأتمة بالإجرام، وبلا مقدمات صاحت:

- اغرب عن وجهي أيها الشيطان.

- كم من شيطان كذب عليك؟ الكذب فضيلة إذا حقق لك غاية، ألسنت

أنت كذبت على آدم في الجنة؟

تحركت ناحيتي ورمقتني بنظرة احتقار وأنا أقول لها:

- أنتِ أذكى منا جميعاً يا ليليث، لكن دوماً تنقصكِ المعلومات، أنتِ
ترين حواء تتلوى ألماً ولا تدرين أنها بعد أيام ستضع طفلها،
ثمرة حب آدم لها، الذي سيحمل اسمه واسمها.

نظرت ليليث في الأرض وعينها تُظهر حديث روحها المجرمة،
وأصبحت من يومها تراقب حواء ليلاً ونهاراً، وإذا سمعت أصوات آلام
حواء في الولادة تطرب لها كأنها النغم، حتى أتى اليوم المنتظر؛ يوم
الولادة، كان آدم غائباً، فبرقت عيون ليليث وانسلت في جُرح الليل
واختطفت ذلك الطفل، ولم ترمه في مكان ما، إنما فعلت به أبشع ما
يمكن أن تفعل أنثى بطفل، مزقته بأسنانها وشربت من دمائه وانتزعت
قلبه ثم رمته في الكهف.

«غريزة القتل تكون كامنة حتى يوقظها القتل».

مشيت وفي يدها قلب الطفل الأول يسيل دمًا حتى أتت على وادي
جهنم، فأثبَّتْها وقلبي يتهلل بما صنعت، قلت لها:
- احرقه كما أحرقت قلبك، فإن هذا يُسكن النفس.
نظرت إليّ بعين لم أجد أكثر منها شراً وجمالاً، ثم بدأت تفتش بعينها
في الأرض عن حصي تُشعل بها النار، فمددت يدي إليها وقلت:
- دعيني أهب لك هذه الهبة.

أعطتني القلب الدامي ونظرها لا يغادرني، فأضرمْتُ أمامي ناراً بلا
حطب وألقيت فيها القلب الصغير وأنا أقول:

- إلى روحكِ أهب زهرة البشرية الأولى.
وجدتُها وقد تحركت ملامحها تشفياً، ورأيت هيئة روحها تنتظم
كالأفعى التي شبعَت ثم قالت:

- لعلني لم أكتفٍ، ما اسمك؟

- مولوك.

- أنت من أتباع ذلك الكاذب لوس؟

- بل إنني تركتهم وما يصنعون وتبعت نفسي.

أعجبها حديثي، ولم تدرِ أنني قد أبذل روحي لأجل جدي نجم الصباح
لوسيفر.. ولن تدري، وظلت الأفعى البشرية ترتحل وراء آدم وحواء
اللذين كانا يمشيان والهَمُّ في عيونهما من فاجعة موت طفلهما حتى
دخلتا أرض عدن، وهناك وضعت حواء طفلتها الثانية، تحيَّنتُ ليليث
فرصة نوم آدم وحواء وبرزت للطفلة في كهف المكفيلة وخنقتها بيدها
ثم هربت، لم تُرق قطرة دماء واحدة هذه المرة لئلا تنكشف، فأرض
عدن ليس فيها دواب مفترسة، والحق أن ليليث كانت أول بذرة للإجرام
وُلدت على هذه الأرض.

وعلى ظلال جبل المكفيلة أتيتها وقلت:

- نفسك تتوق لآدم، لكن كبرياءك يمنعك.

قالت بنفس آثمة:

- لا يعنيني حتى يأتيني.

- سيأتيك طمعاً في إيمانك بربه.

قالت بغضب أنثوي:

- سيكون قد أتى إلى حتفه.

قلتُ لها وظل الغيوم يتحرك علينا:

- إذا أردتِ أن تحرقِي قلب غريمتك، تزوجي آدم وأنجبي منه أنتِ

أولاداً، ولا تتوقفي عن قتل أولادها هي.

ورأيتُ عين الشيطانة تلمع، بأكثر من لمعان عيون إبليس، وإني

والله لم أر في حياتي جمالاً بهذا المظهر المرعب.

«النظر إلى حية سامة تتدلل لبعْلِها هو شيء يثير لعاب الشيطان».

طُرْتُ طيران الشياطين إلى ناحية آدم فوجدته في ذلك اليوم واقفًا
عند نهر عدن يفرغ همومه بالنظر إلى صفائه، وفجأة وجدها أمامه، بكل
جمالها الذي لم تمحُ منه الظروف أي شيء. قال لها:
- طال الأمد يا ليليث.

نظرت إلى عينيه مباشرة وقالت:

- ألسنا قد خُلِقنا لبعضنا يا آدم؟

قال لها بثبات:

- ألسْتُ أنا قد أُنيتُك عند الغابة باحثًا عنك؟

تصنَّعت الدلال وهي تقول:

- ولماذا اخترتها هي، تلك السمراء؟

قال بحزم:

- إنما منعني ربي أن أنكح مَنْ تكفر به.

ظهرت الحدة على ملامحها وقالت:

- ألن تكفَّ عن هذا الرب؟ لماذا تؤمن يا آدم أنه يوجد كيان اسمه

الرب فَرَضَ كل تلك الفرائض والموانع؟ نحن أحرار يا آدم.

أعرض عنها بوجهه وقال:

- فرائضه وموانعه هي عين الحرية يا ليل، وإلا تكون النفس عبدة

لشيء آخر؛ شهواتها.

اقتربت منه كالأفعى وهي تقول:

- لا تجعل أحدًا يأمرك وينهاك.

التفت لها وقال:

- كيف تكفرين وقد أوجدك ولم تكوني شيئاً يُذكر؟

توقفت مكانها وهي تقول:

- لأنني لا أعلم لماذا خلقنا.

قال بخشوع:

- رحمةً بنا يا ليليث.

عقدت حاجبها في غضب وقالت:

- أي رحمة تلك؟ انظر إلى حالي وحالك.

نظر آدم إلى ثوبها الذي أصبح بالياً ملطخاً، وإلى ثوبه المُحَاك من أوراق الشجر وقال لها:

- أَلَمْ تكوني تراباً جامداً فَمَنْ عَلَيْكِ وجعلكِ كائنة تسمع وتبصر، ولم

يجعلكِ حيواناً بل إنساناً يفكر ويختار ويتكلم؟

- بلى.

قال لها وإصبعه تشير إلى أعلى:

- فتلك رحمته.

مدَّت ليليث يدها لتمس يد آدم وهي تهمس:

- فليكن يا آدم، قل لربك أن ليليث آمنت.

أبعد آدم يده واستدار مُعرضاً عنها وهو يبتعد مغادراً:

- ربي أعلم بقلوب عباده.

«حاسب المنافق بما يظهر ليس بما يبطن».

كانت متابعة بني الإنسان شديدة المتعة، كنت أتحين كل فرصة لأوسوس في قلوبهم بما يجب. وجدت آدم يقول لحواء ذات ليلة:

- لقد أرشدني الملاك إلى أن أتزوج ليليث.
- لم تَرُدُّ حواء وأشغلت نفسها بما تفعله، وشعرتُ بنفسها تتهيأ للثورة لكنها صمتت، وفجأة قالت متجاهلة كلامه:
- طفلي الذي أحمله سأسميه عبد الحارث يا آدم.
- ليس طفلكِ وحدك يا إيقا، أتجعلين اسمه لغير الله؟
- هنا ثارت حواء وصرخت فيه:
- لستِ أنتِ من يشعر بطعم الدم في حلقه، ويتمنى الموت ساعة الوضع، ثم بعد كل هذا يموت الطفل، والله إنني لأفعل أي شيء حتى أحميه، وإن كان اسم عبد الحارث سيحفظه فلنسمه به حتى حين، ثم نغيره بعد ذلك، أليس حفظ النفس أولى من أي شيء؟
- وغضبت حواء غضبة ما غضبت مثلها في حياتها، لا تدري أهى بسبب اسم الطفل أم بسبب قرار زواجه من ليليث، ولم يعرف آدم أن يهدئ من روعها، فانصرف من المكان وفي وجهه ملامح الغم والهم. ومرت أيام الإنسان وتزوج آدم ليليث، حتى يتزوج أبناء حواء من بنات ليليث وأبناء ليليث من بنات حواء، فقد حرّم الله على الإنس كما حرّم علينا -نحن الجن- أن يتزوج الأخ من الأخت الشقيقة.
- أظهرت ليليث لآدم الإيمان وكان الله أعلم بما في قلبها من الكبر والنفاق، ولم يترك آدم حواء رغم خلافهما بل كان معها في أشهر الولادة الأخيرة حتى أخرجت إلى العالم أول طفل بشري، ولم ترضَ حواء أن تسميه أي اسم إلا عبد الحارث، خوفاً عليه من بطش الشياطين، وقاطعها آدم، وفرحنا جميعاً بقطيعتهما، وأظهر جدي لوسيفر اهتماماً كبيراً بالطفل منذ ولادته، لأنه وُهب إليه منذ اليوم الأول، وُهب إلى الشيطان. وعند تلك الصخرة كان ذلك الطفل يحبو في براءة، ثم توقف لما وجد عبادة سوداء أمامه، فنظر إلى الأعلى ورأى جدي لوس ينظر إليه بشيء من الفخر، فضحك الطفل للشيطان، وتبسم الشيطان للطفل، كان هذا

الطفل هو نفسه الذي سيسميه أهله لمّا يكبر اسمًا اشتهر في الدنيا
كلها، اسم كين، أو كما قالوا عليه، قابيل.

«هذا الطفل نظراته تخيفني أنا شخصيًا».

عاش كين، وكان ألمعيًا، فتعلّم الكلام بسرعة، وتعلّمت حواء الحياكة
فصنعت له رداءً ملونًا من صوف الأنعام، وانتقل آدم وحواء وليليث إلى
أرض سايرن في أتلانتيس، وكان خيرها كثيرًا وحيواناتها أليفة. كان
من المستحيل تقريبًا أن تجمع ليليث وحواء في مكان واحد، كل واحدة
منهما تكره الأخرى، ليليث تكره الجميع، وحواء تكرهها لأنها تشك فيها،
كنت أسمعها تقول لآدم في ستر الليالي:

- أطفالنا الذين ماتوا ونزف كبدي عليهم، أولهم كان ممزقًا فقلنا
إن حيوانًا مزقه، لكن الطفلة الثانية كانت مقلوبة مخنوقة، وهذا
ليس من عمل الحيوانات، لا أحد يمكنه فعل ذلك إلا هذه الشيطانة
زوجتك، فالجن لا يقدر أن يقتل أحدًا، زوجتك هي التي قتلت
طفلي.

كانت ليليث تخطط حقًا لقتل الطفل الجديد، ولكن حدث أمر عجيب
وقفّت أمامه مذهولًا، فجأة سمعت صوت صراخ، فهُرعت إلى المكان
أنظر، فوجدت حواء تمسك بلييث، كان الكمد والغضب في عروق حواء
قادرين على كسر الأرض التي نمشي عليها جميعًا، بدت حواء كالملاك
الغاضب وهي تمسك برأس ليليث وتكاد تكسره، وللمرة الأولى رأيت
ارتجافة ليليث ورعبتها وحواء تقول لها:

- والله إن مسّ ولدي هذا سوء لصفيت دماءك هذه وأحرقت لحمك
القدر حتى لا تعرف الوحوش كيف تأكل جثتك.

أصبحت ليليث منذ ذلك اليوم لا تفكر حتى بالنظر إلى ناحية حواء، ومرت السنون وعاش الطفل بخير، ولمّا اطمأن عليه قلب حواء غيّرت اسمه من عبد الحارث إلى كين. ومَرَّت أيام الإنسان، وحملت ليليث وولدت فتاة جميلة جدًّا سمَّتها «أكليما»، ثم ولدت حواء فتى وسيماً حلو الملامح سموه «هابيل»، كان الفارق بين كين وهابيل شاسعاً، كين باهر الذكاء فيه شيء من التعالي، وهابيل طيب القلب ذو روح صافية كصفاء آدم.

وفي كل سنة تمضي من عمرهم كانت حواء تلد طفلاً وليليث تلد طفلاً، وكان مجتمعهم الإنساني يكبر سريعاً ويمتلئ بصيحات الأطفال وبكائهم، وتعلم الإنسان أن الطين إذا تُرك في الشمس يتصلب، فصنع طوباً وبدأت البيوت الأولى تظهر على الأرض، وبدأت ليليث قليلاً عن إجرامها، وانشغلت بأطفالها الذين أشعلوا رأسها من الغضب. كانت ابنتها أكليما فتاةً حسنة كأن الحُسن قد خُلِق لها وحدها، ببيضاء كالثلج، رمادية العينين، سوداء الشعر، وكانت تلعب مع كين وهابيل منذ صغرها، ودائماً كان يحدث بين الأخوين بعض العراكات الطفولية على أكليما.. لكنها كانت تنتهي سريعاً ويضحكان ببراءة الأطفال، وكنت أشعر من مراقبتي ثلاثتهم أن أكليما أقرب إلى هابيل، حتى مرّت من السنين مثتان، وأصبح كين وهابيل شابين قويين، كين ذو شعر طويل أسود يربطه خلف رأسه، ملامحه حادة وعيونه سوداء ضيقة، وهابيل قمحي اللون بني الشعر واللحية والعينين، ونضجت أكليما وأصبحت آية في الجمال وبلغت مبلغ الزواج.

وأصبح آدم يرسل كين وهابيل معاً ليراقبا القطعان في أرض سايرن، لاحظ آدم أن ابنه هابيل لديه شيء مع الحيوانات، يحبها أكثر من البشر، حتى الحيوانات المفترسة لم تكن تهاجمه، في حين أن كين أظهر ذكاءً بارعاً في البناء والزراعة، ففصل آدم بينهما وجعل كل واحد مسؤولاً عن عمل يُشغل فيه إخوته الصغار، هابيل مسؤول عن رعي الحيوانات وكين عن الزراعة. مرت السنون وبدأ الأخوان ينظران إلى أكليما للزواج،

وتلك كانت قصة تطرب نفسي الشيطانية كلما تذكرتها، ذلك لأنني نزلت
بنفسي إلى نهر الأحداث أشارك فيها.

«إذا دخلت امرأة بين أخوين، ازدحمت الشياطين لتشاهد».

جاء هابيل إلى آدم في ليلة لا أنساها، يطلب أكليما الجميلة للزواج.
صدمتُ بآدم وهو يقول له:

- يا هابيل، سبقك أخوك كين بطلبها، وهو أكبر منك فهو أحق.
- يا أبتِ نسألها ولو اختارت أخي كين فإنني والله سأكون خير
معين له على صداقتها.
وطرت إلى ناحية كين فوجدته عند ليليث، وكانت معجبة به وبدهائه،
كان يقول لها:

- إني أطلب الزواج من ابنتك أكليما، وإني سأؤتيها وأؤتيكِ من
الذهب ما تشتهيان.
- والله لا أزوجكِ إياها أبداً، أخوك هابيل أحق منك، إن نفسها أقرب
له هو، إنها تقول لي دوماً إن هابيل أشد قوة من أخيه.
وانصرف كين من عندها وعينه لم تعد تنظر إلى أخيه بالنظرة نفسها.
بعد أيام ذهب آدم إلى أكليما، فقال لها:
- يا أكليما، إن كين يطلبكِ للزواج، وإني أراه صالحاً لك.
كان يبدو أن آدم يعرف أبناءه، ويعرف من منهما سيكره أخاه إن لم
يتزوجها، لذلك بدأ يقنعها بكين ولم يخبرها بأمر هابيل، وكلما سألها
عما ترى في ذلك.. تسكت أكليما ولا ترد. ثم قال لها آدم:

- يا بُنيتي، إن هابيل أيضاً يطلبكِ للزواج.
تنوّر وجه أكليما لما سمعت اسم هابيل وسكتت حياءً، فقال لها آدم:

- أكليما يا صغيرتي، لا بد أن تختاري، وإن أردتِ واحدًا آخر من أبناء حواء فإن كثيرًا منهم قد بلغ مبلغ الرجال.
- يا أبتِ افعل ما ترى، كين وهابيل عندي في المنزل نفسها، وإني أرى أن ننتظر أمر الله فيهما، فجميعنا نرضى بأمر الله.
- وعاد آدم إلى مسكنه ونام ليلته تلك، ثم لما طلع الصباح جمع ولديه كين وهابيل وقال لهما:
- يا بَنَيَّ.. إنني سألت أكليما فخرجت ورضيت بما يختاره لها الله، فاعملا في أرضكما حتى تمر سنة من الزمان ثم قرِّبا لله قربانًا مما رزقكما في هذه السنة، كل منكما يُخرج عُشْر رزقه، فمن يتقبل الله قربانه يتزوجها.
- وعمل هابيل في رعي ماشيته فنمت وسمنت سريعًا قبل مرور السنة، وعمل كين في حقله وزرعه لكن تلك السنة كانت جدباء كلها فلم يخرج من زرعه شيء. ورغم أنها كانت فرصة ذهبية لهابيل ليقدم قربانه فإن نفسه كانت طيبة، إذ رفض أن يقدم قربانه وانتظر سنة كاملة أخرى حتى ينمو زرع أخيه. وبعد سنة أخرى من الزمان نما محصول كين نموًّا زاهرًا حتى صار كالجنة، فاختر عُشْر هذه الجنة، وصنع بناءً فاخرًا جدًّا وواسعًا حول هذا الجزء فصار كالحديقة المُسوَّرة؛ فقد كان فنانًا، بل هو أول البنَّائين الأحرار الفنانين في تاريخ هذه الدنيا، أنا نفسي أخذت أنظر إلى بنائه وألوان الطوب الذي استخدمه وزخارفه، حقًّا كان بناءً يأخذ العين. أما هابيل فقد اختار من ماشيته العُشْر، وتوجه إلى كين وقال له:
- يا أخي، إنكَ قد صنعت بناءً فاخرًا جميلًا لأجل القربان، فخذ ماشيتي وضعها فيه إلى جوار أشجارك، فنقرب القربان معًا.
- نظر إليه كين بقسوة وقال:
- يا أخي، اذهب واصنع مثلها أو أفضل منها إن استطعت، فإنني لا آمن أن تأكل ماشيتك من زرعي.

- لكن أشجارك عالية ولن يصلوا إليها.

رفض كين وكان يعلم أن أخاه بسيط لا يعرف في صناعة البناء، فأطرق هابيل وانصرف إلى حقله وفصل العُشر الذي اختاره عن بقية ماشيته فصلًا عاديًا، ونام في تلك الليلة فرأى ما استغربته نفسه، ونفسي. «رأى امرأة تشبه أكليما، فرغت من رقصها وتوجهت ناحية أمها الملكة التي تشبه ليليث لتستشيرها، قالت: «يا أمي أي شيء أطلب من الملك؟» وهنا انحنى على أذن الملكة رجل كان وراءها، رجل عظيم البنيان جعد الشعر طويله، وله عين عوراء وملامح كالثعبان، همس في أذن الملكة بشيء، فقالت الأم لابنتها: «اطلبي أن يُقطع رأس الرجل الصالح»». فاستيقظ هابيل فزعًا وهو يُسائل نفسه عما رأى.

«لو تقبَّل الله من الرجل فاغترَّ بنفسه فهو ليس رجلًا صالحًا».

دون سابق إنذار هبَّت رياح عاتية على أرض سايرن، فاقتلعت أشجار كين من جذورها وبنائاته من أساساتها، ورأيتُ هابيل يُدخل ماشيته إلى كهف وينطلق مسرعًا ليساعد أخاه، ولما وصل إليه كادت عينه تقتلع من المفاجأة لا من العاصفة، رأى جنة أخيه كين قد نُسفت نسفًا، نخل منكسر على الأرض وشجر مُتهتَّك وثمر منسحق، فانطلق داخلها يبحث عن أخيه حتى وجده والذهول يغمره، فقال له:

- يا أخي، تعال إلى الكهف نحتمي.

نظر إليه كين نظرةً من نار ثم ذهب معه مطأطيء الرأس، ثم جاء آدم وقال قولة عجيبة:

- كين يا ولدي.. لا تحزن، إن الله قد قبل قربانك، وإن علامة قبوله أن أخذه الله منك.

فرحت نفس كين فرحًا عظيمًا، ورأيت أخاه هابيل يقوم ويحتضنه رغم أن قربانه قد رفض، كان هابيل هذا حقًا من الصالحين. وبهذا عُقد زواج كين على أكليما الجميلة صاحبة العيون الرمادية الفاتنة، وكانت ليلة من أجمل ليالي الإنسان، اجتمع فيها ذلك المجتمع الإنساني الذي بلغ يومها أكثر من أربعمئة شخص بين طفل وصبي وشاب، الكل يرتدي رداءً حسنًا، فكان منظرهم باهرًا في تلك الليلة تحت ضوء القمر.

وكانت أكليما الجميلة في تلك الليلة حزينة لكنها تتظاهر بالسعادة، كان هذا واضحًا في أصول عينيها، فإن قلبها أحب صفاء هابيل ونور روحه. كنت من آنٍ لآخر أتابع كين ببصري، وجدته سعيدًا لكن نظره من حين لآخر كان يركز على عروسه أكليما، وقد رأى فيها ما رأيته من حزن خفي. على الجهة الأخرى ذهبت لأرى حال هابيل، فوجدته جالسًا في رضا لكنه يتنهد من حين لآخر وينظر إلى السماء، ورأيت ليليث تميل عليه وتقول:

- حكاية القربان هذه كانت حجة يا عزيزي، نحن قدّرناها لكن منذ البداية، هي تحبه هو، هكذا كانت تقول لي دومًا منذ صغرها، لكن لا تحزن، إن لي بنات أخريات، سأزوجك واحدة منهن.

نظر إليها في صمت ولم يجب، فقالت بخبث:

- أو ربما سيأخذها منك أخوك كين أيضًا.

وضحكت ليليث وانصرفت، ومر اليوم واليومان وأنا أتنصّت على كين وزوجته، سمعت بينهما خلافًا بصوت عالٍ لم أتبين فحوى الحديث لكنه كان عن هابيل بالتأكيد، وخرج كين في تلك الظهيرة من بيت زوجته ووجهه لا يبدو بخير، فاتجه إلى بستانه وأخذ يلملم شجره وبناءه الذي هوى، ثم حصل شيء اتسعت له عينا كين عن آخرهما.

فجأة رأني وسط بستانه، أنا مولوك بن لاقيس بن إبليس، كنت متمثلًا في هيئة مرثية للبشر حتى يراني، لأن أولاد آدم لا يقدرّون على رؤية

الجن، فأرواحهم تحتاج إلى تصفية. ولم يرني وحدي، بل جعلتُ «هامة بن الهيم» أيضًا يتمثل معي، وأجرينا أمامه منظرًا جعله يتراجع فزعًا حتى وقع على الأرض. أمسكتُ أنا برقبة «هام» بعنف شديد ثم ضربتُ رأسه بحجر ضخم، فسقط الجّني على الأرض متظاهرًا بالموت، ونظرتُ إلى كين وابتسمت ببطء، ففزع مما رأى ونظر حوله ثم أعاد النظر إلينا، فلم يجد أحدًا هنالك، كنا نوحى له برسالة، رسالة من دم.

«لا تثق بأحد ولو وجدته معلقًا من قدمه في صحراء».

أسرّها كين في نفسه، لم يكن قد رأى قتلًا في حياته، لكن جدي لوسيفر راهن أن هذا المنظر سيوافق هوى في نفس كين، وبالفعل وجدناه يختلي بنفسه كثيرًا ويفكر، وكلما نظر إلى هابيل نظر إليه بالشر، لم تكن ندري هل س يلتقط الرسالة حقًا أم لا، كل ما كنا متأكدين منه أن كين يشعر أن زوجته ما زالت تحب هابيل، وأن هذا يُشعل في نفسه شيئًا، حتى أتى ذلك اليوم، فوجدناه توجه إلى أخيه هابيل وقال:

- يا أخي إنني أعتذر منك عما حدث بيننا في سنة القربان، عندما منعتك من أن تضم ماشيتك إلى بنائي، فتعال أعلمك فنون البناء.

فرح هابيل فرحًا شديدًا ورافق أخاه، وفجأة سمعتُ بأذني صرخة حواء، وفي لمحة واحدة كنت بجوارها أسمع وأرى، وجدتها قد هبت من نومها فزعة تقول لآدم:

- آدم، شر عظيم يا آدم، رأيت فيما يرى النائم هابيل ابننا مجروح الرأس ينزف، ويمشي في أرض جرداء يلتمس الماء، فوجد أخاه كين عند شجرة معلقًا من قدميه مقلوبًا على رأسه عطشان يكاد يموت، فصاح فيه كين: يا هابيل تعال اسقني، ولم يجد هابيل ماءً، فسقاه من دمه، حتى ارتوى كين، وصحوت أنا فزعة.

لم يرتح آدم لهذه الرؤيا وانطلق يبحث عن أبنائه، وعند كهف المكفيلة البعيد عن أرض سايرن، كان كين وهابيل يتحدثان الحديث الأخير، قال كين:

- يا هابيل تعال نلعب بالأغصان.

- وكيف نلعب بالأغصان؟

- احتضن تلك الشجرة وسأقيدك وتحاول أن تتحرر ثم نكرر اللعبة

ونرى من الذي سيتحرر أسرع.

قيّد كينُ أخاه، وأحسَّ هابيل بالقلق، كان كين يلف الأغصان لفًا متينًا والشر يتطاير من عينيه، وقبل أن يتفوه هابيل بكلمة نظر إليه كين وقال له بصوت مخيف:

- أنا أعلم كل شيء، عيونها تفضحها، إن أكلتما زوجتي تُفضلك

عليّ، ولا أدري كيف تُفضّل شخصًا مثلك آثمًا لم يتقبله ربه،

لأقتلك لتتخلص الدنيا من إثمك.

- يا أخي لا تستمع لنفسك التي تحدثك بالشر، قد تقبل الله قربانك، وإنما

يتقبل الله من المتقين، والمتقون لا يقتلون النفس التي حرم الله.

لم يردّ كين وضيق عينيه في كراهية، وفجأة حدث ما لم يتوقعه أحد؛

انتفض هابيل المربوط وتفتحت كل عضلة في جسده القوي، وتراجع

كين قلقًا، وكسر هابيل جميع الأغصان التي عليه وتحرر منها، واقترب

من كين وهو يقول له:

- إن بسطت إليّ يدك لتقتلني يا أخي، ما أنا بباسط يدي إليك

لأقتلك، إنني أخاف الله، وإنك لتعلم أن القاتل يبوء بإثم المقتول،

فإني أريد أن تبوء أنت بإثمي وإثمك حتى ألقى ربي شهيدًا خاليًا

من الذنب، فاقتلني.

وفي غفلة من كل عين انحنى كين إلى الأرض والتقط صخرة كبيرة

وهوى بها بكل ما في نفسه من غل على رأس هابيل حتى شجّه، فترجع

هابيل في دهشة من الألم والمفاجأة، فطوعت نفس كين له أن يهوي بضربة أخرى أشد على الموضع نفسه في رأس أخيه الذي تفجرت منه الدماء، ثم ضرب ضربة ثالثة وسقط هابيل بجمود على الأرض، ووقف كين ينظر إلى جثة أخيه وهو يرجف غير مُصدّق ما فعله.

حاول كين أن يتمالك نفسه ودماء هابيل تسيل على وجهه وملابسه، وجلس على الأرض بجوار الجثة يرتجف، وبعث الله غرابًا من نوع الكاثام القديم، رآه كين يمشي ويحمل في منقاره فأر فلوريس ميتًا، ثم وضع الغرابُ الفأرَ في الحفرة وغطاها ببعض أوراق الأشجار الساقطة. نظر كين إلى المنظر وهو يبتلع ريقه بصعوبة وكان ذكيًا، فقال:

- يا ويلتا، أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب، وهكذا يمكن أن أخفي جريمتي فأواري جسد أخي في التراب؟

وهرع يحفر الأرض في كهف مكفيلة، ولكن الوقت لم يسعفه، ففجأة وصل آدم وحواء ولييث وأكليما، وخزّت حواء على ركبتيها أول ما رأت ابنها مقتولًا فاغراءً فاه ورأسه إلى الوراء، تمامًا كما رأت أطفالها قبل سنين، لم تقوَ قدمها على حملها فانهارت على الأرض، أما أكليما فمدت يدها إلى هابيل الميت وهي تبكي وقد اختلط دمعها بدمائه الطاهرة وكين ينظر إلى أكليما بعيون حائرة، أما آدم فكان ينظر إلى ابنه المقتول مفجوعًا لا يتكلم.

وجاء لوسيفر والشماتة في عينيه ومعه أمنا واضية وبعض الجن الآخرين الذين تجمهروا للنظر، ثم جاء بقية أولاد حواء ولييث ينظرون إلى أول جريمة مشهودة في التاريخ.

ثم ابتدأ المطر ينزل من السماء ليغسل الأرض ويغسل ذنوب الجميع، وآدم واقف وجهه مظلم ناظرًا إلى الأرض لا يعلم ماذا يفعل، وعند ذلك الموضع وذلك الاجتماع، ووسط كل هذه المشاعر الإنسانية الشيطانية المتضاربة، نزل ملاك الله بأمر الله، نزل الملاك الجليل ميكائيل.



«نزل حكم السماء، وكان وبلاً على الجميع».

لست أملك من الكلمات ما يكفي لوصف ذلك الملاك، فهو كيان لمّا تراه لا يسعك إلا أن تقف وتتجمد، وإنه لا يتنزل إلا لأمر جلال، وكانت كلماته التي نطق بها زلزلاً، قال ميكائيل:

- سُفكت دماء ذريتك يا آدم على هذه الأرض ثلاث مرات، وإن لديك قاتلين اثنين.

تجمّدتُ مكاني لمّا سمعت هذه العبارة، ونظر آدم بدهشة، قال الملاك وهو ينظر إلى كين:

- واحد قتل أخاه بحجر.

ثم نظر إلى ليليث، وسكت لحظةً رأيْتُ فيها وجهها قد امتقع وخلا من الدماء، فقال:

- وزوجة كانت تقتل أطفالك.

أكاد أقسم أنني سمعت شهقة كل من كان واقفاً حاضراً، حتى شهقتي أنا نفسي، نظرت إلى حواء فكان في وجهها مشاعر متضاربة بين إثلاج الصدر وغليان الدم والبكاء، أما ليليث فكانت تنظر إلى آدم بخوف، وأكليما ابنتها تنظر إليها غير مصدقة، وأولادهما ينظرون إلى كل هذا بلا كلمة، ثم قال الملاك شيئاً زاد من الزلزال أضعافاً:

- لقد قضت شريعة ربك يا آدم أن من قتل يُقتل، حفظاً للدم والنفس، فمن قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً، فقضى ربك أن يُقتص منهما فيُقتل.

نظرتُ إلى آدم، ووالله ما رأيته في مثل تلك الحال من قبل ولا من بعد، كان واقفاً يحدق إلى الملاك وترتجف عيناه، وعلى قميصه دم

ولده، ودموعه على وجهه لم تتوقف، ولو أن المشاعر تنقسم في النفس لوصفتها، لكن مشاعره كانت مختلطة وكذلك حواء، بين الخوف على ولدهما كين القاتل والغضب على المجرمة ليليث، وظل الجميع صامتاً حتى قال الملاك الجليل:

- إلا أن تعفوا يا آدم ويا حواء، أو يعفو أحدكما، فأنتما أولياء الدم، فإن ذلك تخفيف من ربكم ورحمة.

صمت آدم قليلاً ثم قال:

- نعفو عمّن؟

قال الملاك:

- إن عفوتما عن ابنكما كين لقتله هابيل فقد نجا من القصاص، وإن عفوتما عن زوجتك ليليث لقتلها أطفالكما نجت من القصاص.

سارعت حواء وقالت بين دموعها:

- والله لا أرى دماء أحد من أولادي بعد اليوم، وقد عفوت عن كين فهو ولدي، أما تلك المجرمة التي قتلت أطفالتي.. فوالله لا أعفو عنها، ولن تبرد نفسي منها وإن قتلتموها ألف مرة أمام عيني.

نظرت ليليث إلى حواء نظرة لم أنسها، نظرة بغیضة كمثل نفسها البغیضة، وهنا تكلمت أكلیما الجمیلة وهي تشد من رداء حواء ودمعها يرجوها وتقول:

- يا سيدة النساء.. أرجوك اعفني عن أُمي فإنها والله قد صلحت.

نظر آدم إلى أكلیما بشيء من الشفقة، ثم حوّل وجهه ناحية ليليث التي كانت تفكر في الهرب، فقال آدم:

- لقد رضيتُ بالقصاص في ليليث، أما ولدي فإني والله لا أرضى.

وبدأت تحدث حركة بين المتجمعين ولیلث تخطو بعض الخطوات متراجعة بحذر حتى ظهر ذلك الذي سيقصص منها بأمر الله ويقتلها.

فزع الجميع من مرآه بردائه الأسود ونظرته الباردة؛ ملك الموت، جاءها من حيث لا تدري، فمد يده إلى عنقها، وقبل أن يمسها تشنجت أطرافها ودارت عيناها في محجريهما وحرّكت عنقها كمن يقاوم الخنق، ثم أنزل الملاك يده فسقطت على ظهرها وأمسكت صدرها في ألم شديد، فوجدته واقفاً عند رأسها يمد يده إلى جبهتها، فارتعبت عيناها والتفت ساقها بساقها الأخرى وجحظت مقلتاها وانفتح فمها ورجعت رقبته إلى الوراء كما كانت تفعل بأولاد حواء، وكان آخر ما رأت لما أرجعت بصرها للوراء هو وجهي ولحياتي الحمراء الناعمة واقفاً بين الجن، ثم انفتحت عيناها بنظرة الموت، وهُرع أولادها إليها جزعين، ثم انطلق ملك الموت كالنجم بروحها إلى السماء. وهنا تحدث ميكائيل بحديث أكمل به سلسلة صدماتنا فقال:

- أما عن القاتل كين، فإنه يُنفى إلى أرض نود يعيش فيها حتى يموت، وزوجوه من ترضى به من بنات ليليث.

ثم نظر إلى حواء نظرة مرعبة وهو يقول:

- ولقد أذنبت زوجتك هذه يا آدم وظلمت ظلماً عظيماً.

هبطت روح حواء إلى أسفل منها وأطرق آدم منتظراً المصيبة التالية، والملاك يقول:

- لما حملت ذلك الحمل الثالث بعد موت من سبق من ولدكما، جعلتما فيه لله شريكاً، سمّته زوجتك عبد الحارث ولا يكون العبد إلا لله.

همّ آدم بالكلام، لكن الملاك المهيب قال موجهاً كلامه للجميع بآخر شيء كنا نتوقعه:

- يا معشر الجن والإنس، قد قضى ربكم بذنوبكم جميعاً أن تهبطوا هبوطاً ثانياً، من أرض عدن المباركة وما حولها إلى أرض أخرى

بعيدة، بعضكم لبعض عدو، وإن الله سيرسل لكم الهدى، فمن تبع هداه فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.
وصمت كل من في المشهد وهم يشاهدون الملاك ميكايل يغادر، ولن ينسى أحدنا هذا اليوم أبدًا.

«كراهيتنا لبني آدم حق، ومعنا كل الحق».

في اللحظة التي نزل فيها الملاك ميكايل لم يكلم جدي لوسيفر، لأنه كان في حال آخر، مأخوذًا رافعًا رأسه إلى السماء يكلمه ربه قُبْلًا. قال لوسيفر لربه:

- يا رب هذا المخلوق الذي كَرَّمته عليّ، لئن أنظرني إلى يوم القيامة لأُنزِلَ على ذريته الذل، فأُنظرني إلى يوم يبعثون.
فأعطاها له ربه وقال له:

- «فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ، إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ».

قال الشيطان وحَقَّد الأولين والآخرين قد ملأ كيانه:

- رَبِّ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَ لَهُوْلَاءِ فِي الْأَرْضِ، وَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ.

فكان رده على ربه ووعيده هذا وبإلّا عليه فطرده ربه من أرض عدن كما طرده من الجنة وقال له:

- «اخرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ».

وخرج أول خلق الله من البشر، آدم وحواء وذريتهما ومن معهما من ذرية ليليث، وإبليس وواضية وذريتهما، خرج الجن من مساكنهم العظيمة في أتلانتيس التي ظلوا قرونًا يصنعونها وساحوا في الأرض

جميعاً. لأجل هذا المشهد وحده كرهنا نحن الجن بني البشر، تلك الشرذمة القليلة التي ظهرت في أرضنا بضع سنين فأخرجتنا كلنا منها. ولم يبقَ في أرض أتلاتنتيس إلا كين وامرأة من بنات ليليث اسمها إيزيس، كانت نفسها خبيثة تشابه نفس كين فطلق أكليما وتزوجها، وعمراً أرض نود بالبنين والبنيان وعاشوا فيها، وكان لهم قصة عجب ليس هذا موضعها. أما آدم ومن معه فقد هبطوا إلى أرض الهند واستقروا فيها، ولم يهدأ آدم ولم تهدأ دموعه، وانعزل عن أهله، حتى أمره الله بأمر عظيم، فقال له:

- يا آدم إنني مُهبط لك حجرًا من الجنة، فاجعله أساس بيت يطوف حوله البشر كما تطوف الملائكة حول عرشي، واجعله في مسجد يُصلّى عنده كما يُصلّى عند عرشي، عمّرهُ يا آدم ما دمت حيًّا ثم تُعمره القرون من بعدك.

فارتحل آدم ومعه حواء وابنهما شيث من الهند إلى أرض بكة، وجعل آدم وشيث يحفران في الأرض وحواء تنقل التراب، وبنوا بيت الله الحرام، ونودي يا آدم أنت أول الناس، وهذا أول بيت وُضع للناس ببكة مباركاً وهدى للعالمين. ونزل الملائكة صاقّين يطوفون به ويُسبّحون ربهم ويقدسونه كما كانوا يطوفون عند البيت المعمور، وصلى آدم فيه ورفع يده بالدعاء لربه فقال:

- اللهم أنت تعلم سري وعلايتي فاقبل معذرتي، يا رب أرأيت إن تبت وأصلحت، أتعينني إلى الجنة؟
- نعم يا آدم.

وكانت تكفيه تمامًا هذه الكلمة وحدها.

ورغم وجود ذرية آدم في الهند فإنه كان في كل أسبوع يمشي من الهند إلى بكة على رجليه ويترك جميع الدواب، ليدعو ربه عند البيت ويبكي، عشرون سنة كاملة قضاها معتزلاً باكياً أتى فيها البيت ألف مرة، حتى أكرمه الله وتاب عليه وأمره أن يعود بذريته إلى أرض عدن،

وسمح له أن يدخل الجنة هو ومن صلح فقط من ذريته. وأكرم الله آدم وأنزل عليه الهدى واصطفاه نبياً من بين ذريته، وأنزل عليه الكتاب الأول، فكان يُذكرهم بأمر ربهم ويُعلمهم.

هل لك أن تتخيل كيف كانت مشاعر الجن وهم ينظرون إلى آدم وذريته عائدين إلى عدن الجميلة بعد عشرين سنة، في حين أن أبانا إبليس لم يتب ولم يرجع، بل فسد وأفسد، وفسدنا معه.

«يحزنني أن تغادرني، لكن ربما تراني حينما تموت».

عاش آدم سنين طَوَّالاً في أرض عدن بلغت ألف عام، وبلغت ذريته تسعة ملايين إنسان، حتى مرض آدم مرض الموت واستلقى على فراشه متألماً بآلم الموت، وجمع إليه كبار أبنائه ونظر إلى وجوههم وحواء بينهم تدعو وتقول:

- يا رب أزل هذا الألم عن آدم واجعله في جسدي أنا.

فتبسم لها آدم فنزلت على وجهه تُقبِّله، ثم قالت له:

- يا آدم لماذا تموت وأعيش أنا؟

- يا حواء إنما يسترد الله أمانته، وإنكِ ستأتين إليّ قريباً.

ارتجفت شفتاها وابتسمت من بين مرارتها، ونظر آدم إلى شيث ولده فقال له:

- يا ولدي، إن جنسنا هذا لم يُخلق للأرض، هذه الأرض قد خُلق لها الوحوش والضواري، نحن خُلقنا للجنة السماوية، هذا منتهانا وإنا ماضون إليها إن أصلحنا في الأرض.

ثم نظر إلى بنيهِ وقال لهم:

- يا بني، كونوا أصفياءً ولا تميلوا، ولا تختلطوا مع أبناء كين، وإني أحذركم رجلاً يخرج منهم هو الشر المقيم، رجلاً هو شر غائب ينتظر، فإذا رأيتموه فليزِم كل واحد منكم بيته.

ثم صرخ من الألم والوجع الذي لا يطاق فأغشي عليه، ثم صحا فقال لبنيه:

- يا بني، إنني والله أشتهي ثمار الجنة فانطلقوا إليها واثبتوني منها بثمر.

ثم نظر إلى حواء وقال لها:

- يا حواء اذهبي إلى شجرة الحياة وسط الجنة، في أصولها تجدان زيت الشفاء فامسحي به عليّ، عسى أن يخفف عني ألمي ويكون لي نوراً في قبوري.

فبكت حواء بكاءً شديداً، وخرجت مع ابنها الشاب الصغير إدريس مرتحلين إلى الجنة. وفي الطريق اعتدى على إدريس حيوان من دواب الوحش له أسنان ثاقبة، عض إدريس من ذراعه فضربه إدريس بيده الأخرى وأبعده وانتنى على الأرض يتألم، صرخت حواء في الحيوان كأنه عاقل وقالت له:

- أيها الحيوان.. كيف تجرؤ أن تُطبق فمك على من خلقه الله بيده؟ وهنا أتاها صوت من ورائهما ليس على الأرض صوت أشد منه شراً، فقال:

- ويحك يا حواء، هذا الحيوان يُقلدك، ألسنتِ أنتِ أول من تجرأ وفتح فمه وأطبقه على شيء محرم عليه؟ أتلومين الحيوان البهيم وأنتِ صاحبة العقل؟

كان ذاك فتى أعور رمادي العين أبيض الشعر ناعمه، يظهر في ملامحه كثير من الحدة، وقف ناظرًا إليها بتهكم، فصاح فيه إدريس وكان شابًا قويًا:

- أما فمك هذا فأغلقه وارحل عن هنا قبل أن آتي لأغلقه لك إلى الأبد، هل أنت من أبناء كين؟

تألمت حواء للكلماته واستندت إلى شجرة لتتمالك نفسها. وأعان إدريس أمه على القيام وهمَّ بأن يبطش بالفتى لكن حواء أوقفته وقالت:

- يا ولدي، والله إنني لأجزم بأن هذا هو الذي حذركم منه أبوكم، تعال نبتعد عن هنا.

نظر إدريس إلى الفتى نظرة أخيرة ثم استدار فصاح الفتى:

- جينون، ستذكر يا إدريس اسمي هذا، وسأذكرك.

تجاهله إدريس ومشى مع أمه حتى وصلا إلى الجنة، فقابلتهم الملائكة متمثلين في صورة رجال حسان الوجه وقالوا لهما:

- عودا من حيث أتيتما فإن لكل داء دواء إلا الموت.

شهقت حواء وقد غصّت بكلمة الموت، وعادت إلى آدم تهرع وتبكي. ثم أتى أمر الله، ودخل ملك الموت ومعه أولئك الملائكة الحسان يحملون مباخر، فذُمرت حواء وجعلت تدنو إلى آدم وتلتصق به، فقال لها آدم:

- يا حواء إليك عني، خلّي بيني وبين ملائكة ربي.

ونزلت حواء على ركبتيها ووضعت وجهها في الأرض تبكي، أما الملائكة فقد قبضوا روح آدم أمام بنيه وغسلوه بماء الجنة ووضعوا عليه حنوطًا من الجنة من الزعفران والnardين، ومسحوا عليه بزيت شجرة الزيتون وكفنوه بأقمشة من الكتان، وحواء واطعة وجهها في الأرض لا تريد أن ترى، فأتاها ملك الموت وقال:

- يا حواء قومي، إن زوجك قد قضى.

وحمله الملائكة ودفنوه في كهف المكفيلة بجوار ابنه هابيل ونظروا
إلى أبناء آدم المجتمعين وقالوا:

- يا بني آدم هذه سُنَّتكم في موتاكم فكذاكم فافعلوا.

وهكذا انتهت أوراقنا، وانتهى السفر البادئ لحياة بني آدم، على أن
فصولاً أخرى بعده قد جرت، فصولاً تختلف.

**** تمت ****

فجأة اشتعلت النيران كالجحيم وتسلق اللهب على الجدران وبدأت
مقابس الكهرباء تنفجر، وفُجِع لويوبولد وأخوه وهما ينظران حولهما
برعب.. النار برزت من اللامكان وبدأت تزحف وتأكل الأرض متجهة لهما
ببطء، نظرت عيونهما بفزع إلى بوبي الذي كان في حال أخرى مغمضاً
عينيه ورأسه مائل للوراء ويهذي بكلمات غير واضحة، ثم فتح عينيه
اللتين اختفى منهما البؤبؤ.. فصارت بيضاء كعيون الشياطين، نفذه
ليوبولد شاتماً إياه في عنف، لكنه لم يفق ولم يبدُ أنه يشعر بشيء.

كان وعي بوبي منفصلاً تماماً عن الواقع وهو يرى فيما وراء بصره
مشهداً لا يجب أن يذكره أبداً، «رأى أنه يجلس مع الجالسين أمام مسرح
في مبنى للتنظيم من مباني نيويورك يسمونه كهف ليليث Lilith
Grotto، وعلى المسرح انتصب تمثال امرأة عارية تماماً تلتفُّ عليها
حية، وعيون المرأة أشدَّ شراً من الحية، ثم برز على المسرح رجل طويل
الشعر يرتدي بذلة سوداء ومعه طفل مكتم وعلى رأسه كيس، وضع
الرجل الطفل عند أقدام التمثال، وجاءت امرأة ذات ملابس لا تمت للعصر
الحديث بصلة، هي الكاهنة العظمى لهذا الكهف و...».

صفعة نزلت على وجه بوبي من يد لويوب الغليظة فلم تزد بوبي إلا
انفصالاً عن الوعي واستغراقاً في ذلك المشهد، «كان يرى الحاضرين
في ذلك المسرح ومنهم أناس يبدو عليهم الوقار مثل ذلك الرجل العجوز
وزوجته والكل يتطلع في ترقب، ومن حيث لا يدري أحد، خرج نصل من

يد الرجل ذي الشعر الطويل وضعه على رقبة الطفل فذبحة في حركة واحدة قرباناً لليليث، كان كل شيء في جسد بوبي يرتجف، لكن يد أبيه الجالس بجواره شدت على يده تطمئنه.

أخذت الرؤيا بوبي إلى مشاهد أخرى تذكره بأن ما يفعله الصفوة من رجال الأعمال والبنوك والسياسيين والفنانين بأطفال الشوارع هو شيء لا يعلمه أحد، قتل واغتصاب وألعاب سادية يلعبونها ويتقامرون عليها. صحا بوبي فجأة من رؤياه بشهقة عنيفة وعيناه تطالعان النيران التي اندلعت في كل مكان فصاح:

- اللعنة.. إنها نـ... نيرانه.

انتفض بوبي من موضعه وبحث حوله سريعاً ثم انقضَّ على جهاز الكمبيوتر انقضاضاً مريباً يبعده عن النيران، فصاح ليوبولد في ثورة:

- لعنة الشيطان عليك أنت وجهازك، أخرجنا من هنا.

قال بوبي بسرعة:

- اللعين مولوك.. الشيطان صاحب القصة.. هذه النيران تعني أنه قرر أن يبيدنا ويميت السر هاهنا.

نظر إليه الأخوان في توتر فقال بوبي بصوت عالٍ:

- افتحوا ذاك الدُرج هناك.

هرع لويب إلى الدُرج يفتحه فوجد فيه طفاية حريق، أخرجها بسرعة وكسر زمام أمانها فانطلقت وحدها نائرة رذاذها الأبيض في كل مكان بلا هدى، وتراجعت النيران في غضب ولويب يوجه الرذاذ هنا وهناك حتى انطفأت تماماً. ولم تلبث أن مرَّت بعض الثواني حتى انبعثت النيران فجأة كأنها تخرج من الجدران نفسها، فمد لويب يده وأطلق الرذاذ حتى خبت، فصاح بوبي:

- ليوبولد، انزع معي قماش هذه الأرائك ودسها تحت كل باب، لا تدع لذلك الشيطان فُرجة.

أسرع ليوبولد ينزع القماش وبوبي يعاونه وهما يهرعان لوضعه في كل مكان يمكن أن يكون منفرجًا وكأنهم يسدون الطريق على حية، دقائق مرت بلا حركة ثم بدأ الباب يهتز كأن أحدًا سيكسره فصاح بوبي:

- ث... ثبت تلك الأقمشة بيدك يا ليوبولد.

زاد ليوبولد من تثبيت الأقمشة تحت الباب وأسند ظهره إلى الحائط مرهقًا وبوبي ينظر إلى الأرض وعينه ترمش بقوة، ومرت دقائق طويلة صامتة. قال لويب وهو ينظر حوله بحذر:

- أيها الأخرق اللعين، أين غاب وعيك؟

قال بوبي وصوته يلهث:

- ذاك الشيطان كان يريني أمورًا لا أريد أن أتذكرها.

- لقد هداً اهتزاز الباب، هل ذهب؟

- نعم ذهب ما دامت الأصوات والنيران قد سكتت، فمولوك ليس من النوع الذي يهدأ.

استرخى لويب وتنهد وقام بوبي يتمالك نفسه و... سمعتُ أذن بوبي صوت زمام المسدس ينسحب، فنظر إلى ليوبولد الذي مد يده المرهقة بالمسدس إلى بوبي وهو يقول:

- إن غاب الشيطان فأنا فوق رأسك يا بوبي، أم أنك نسيت لعبتنا الصغيرة؟

قال له بوبي بإرهاق:

- ألا تكفيك هذه النيران لتصمت قليلاً يا ليوبولد؟

رفع ليوبولد صمام أمان المسدس وقال:

- ذهبت نيران شياطينك ولم تبقَ سوى نيران مسدسي، وذاك لن تقدر على الفرار منه قط يا بوبي، شيطانك اللعين تحدث عن ليليث مثلما تحدثت أنت عنها، وأنت أعلنت قبلاً أنه توجد أدلة ثانية على أن تلك الشيطانة حق، فأين تلك الأدلة اللعينة؟
تنهد بوبي وهو يقول ضامًا قدميه:

- الأمر يا ليوبولد هو عقيدة تسبح بين عقول أهل الأديان في حين أنه ليس لديهم في كتبهم ما يثبتها؛ أن الله خلق حواء فقط ولم يخلق غيرها، وأن أولادها كانوا يتزوجون بعضهم، أي إن البشرية كلها أتت من زواج المحارم، أنت وأنا يا ليوبولد، كلنا من نسل زواج مُحرم، أصحاب الأديان يقولون إن ربهم سمح بهذا للضرورة ثم حرّمه بعد ذلك لأن البشرية لم يكن لديها حل آخر، أي إنهم يضعون ربهم في ورطة من اختراع عقولهم، فقط لأن عقلهم الجمعي يظن أن ربهم لم يخلق إلا حواء فقط في البداية، كان أيسر حل لهذه الورطة التخيلية.. أن يخلق الله امرأة ثانية تتزوج آدم.

قال لوبيب:

- أو يخلق رجلًا آخر غير آدم.

قال بوبي بحسم:

- لا.. آدم هو الأب الوحيد باجتماع نصوص الأديان الثلاثة.

قال ليوبولد بغضب:

- دعك من الفلسفة يا هذا وألقِ بالدليل.

قال بوبي بنظرة عتاب:

- لو أنك تقرأ يا ليوبولد كتابك المقدس ستعلم الدليل حينما تجد تناقضًا بين سِفَر التكوين الأول والتكوين الثاني في قصة الخلق،

ففي التكوين الأول آدم (وامراته) خُلِقَا معًا من الطين، في حين أن في التكوين الثاني آدم كان وحيدًا ثم خُلِقَتْ حواء من ضلعه، ولما شرح علماء اليهود هذا التناقض قالوا إن التكوين الأول كان يتحدث عن امرأة أخرى غير حواء اسمها ليليث، وإنها اختلفت مع آدم سريعًا وهربت منه، وأنها كانت مجرمة تقتل أولاد حواء، ولكن معظم علماء اليهود والمسيحيين يعدّون هذه القصة أسطورة لا أساس لها.

قال له لويب:

- وماذا عن كتب الأديان الأخرى؟

قال بوبي بتركيز:

- في القرآن بعد أن ذكر الله النساء اللاتي لا يحل للرجل الزواج منهن كالأم والأخت والابنة وغيرهن وبعد أن ذكر أحكام الزواج كاملة قال: "يريد الله أن يتوب عليكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم" أي أن هذه السنن في الزواج كانت مفروضة على كل من كان قبل أمة محمد منذ عهد آدم، فزواج الأخت الشقيقة كان محرّمًا في عهد آدم وكل العهود التي تليه بنص القرآن، فما الحل للتكاثر إذا كان الزواج من الأخت محرّمًا ولا يوجد سوى رجل واحد ابتدأ به كل الناس بنص القرآن "يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة"

قال لويب:

- أن يخلق امرأة ثانية لا يوجد حل آخر.

قال بوبي وحاجباه مرفوعان:

- «لا دليل على هذا في الإسلام لكنّ هناك شيئًا يقرب المسافة بين الأديان بشأن ليليث، ففي حديث صحيح من سنة محمد»، كان أولاد حواء في أول أمرها يموتون موتًا غامضًا ولم يذكر محمد كيف كانوا يموتون، قال محمّد إن الشيطان جاء إلى حواء وأخبرها

أنها لو سمّت ابنها عبد الحارث سيعيش أولادها، فلمّا سمّته مثلما قال الشيطان عاش ابنها، ويُصدّق القرآن على هذه القصة بآية تتحدث عن أن آدم وحواء جعلاً لله شركاء في ولدهما، طبعاً الشيطان في سُنّة محمّد لا يعلم الغيب ولا يقدر أن يقتل بشراً فليس له أي سلطان على ابن آدم إلا الوسوسة، فكيف يقول لحواء هذا ويحدث كما قال إلا إن كان يعلم يقيناً كيف يموت أولادها بل ويعلم كيف يمنع الضرر، وبالفعل لمّا سمّته عبد الحارث.. منع الشيطان الضرر فعاش ولدها، هل بدأت ترى الرابط بين الحكايات؟ الشيطان كان يعلم أن قاتلة الأطفال وقرينة الشيطان التي اسمها في كتب اليهود ليليث هي من تقتل أولاد حواء، ولما أطاعت حواء الشيطان وسمت ولدها عبد الحارث، أمر الشيطان ليليث أن تتوقف عن قتل الأولاد فامتنع الضرر عنهم وعاش الولد. قام ليوبولد وقد أنزل مسدسه:

- كفاك ثرثرة، إلينا بالتالي في قائمتك اللعينة، وفي المرة القادمة التي تفاجئنا بها هكذا سأفجر رأسك بلا نقاش.

ذهب لويب للطاولة وأخرج المجموعة الرابعة من الكروت، التي اندهش أن فيها ورقتين فقط، قال بوبي:

- انسيا كل ما عرفتما قبل الآن؛ فالمجموعة التالية ستنقلنا من زمن آدم إلى زمن آخر، فقط تذكر ما نبهتكما أن تتذكراه من قبل؛ سِفَر رازئيل.

قال ليوبولد:

- الكتاب الذي أنزله الملاك على آدم؟ ما به؟

قال بوبي وهو يكشف الورقتين:

- ذلك الكتاب أورثه الأنبياء الأوائل بعضهم إلى بعض، وكلما نزلت على نبي صحائف ربانية زيدت إلى الكتاب فأضافت إليه علومًا وحكمة.

وضع بوبي الورقتين كل منهما عند واحد من الأخوين، وكانت الورقتان هما ورقة العلم وورقة الملك، قال بوبي:

- تطورت علوم الإنسان بفعل هذه الكتب الأولى، وبدأت الحضارة تظهر وتُشعُّ حتى أتى زمن خرجت منه كل العلوم الخفية التي تتغذى عليها جميع التنظيمات السرية اليوم.

قال لويب:

- تقصد علوم المُعلم الأعظم تيوبالكين في زمن نوح؟

هزَّ بوبي رأسه نافيًا وقال:

- بل قبل هذا بكثير، ولم يكن هناك مُعلمٌ أعظمٌ واحدٌ، بل اثنان، ولقد تواجها في زمانهما، وكانت مواجهتهما كارثية.

قال لويب باستنكار:

- وأين كُتبت هذه المواجهة بالضبط؟

قال بوبي:

- في ألواح الزمرد.

قال ليوبولد:

- وأين تلك الألواح؟

أجابه بوبي:

- غير متاح للعامة منها سوى لوحة واحدة كُتبت فيها جمل قصيرة تبدو مثل أمثال وحكم تخاطب العقل الباطن.

قال لويب بِشك:

- وكيف عرفنا ما كتب في البقية؟
- أطرق بوبي برأسه إلى الأرض ولم يجب فتحرك مسدس ليوبولد تلقائيًا وهو يقول:
- مَنْ الذي استخرجها، وأين بقية الألواح؟
- قال بوبي:
- المشكلة تكمن في الذي استخرجها.
- قال لويب بسرعة:
- من هو؟
- قال بوبي وعينه لا ترمش:
- أقدر ساحر سفلي في تاريخ هذا العالم، حتى إن الحظرд بالنسبة إليه تلميذ.
- نظر إليه الأخوان بتساؤل، فقال بوبي:
- اللعين، صاحب شمس المعار...
- فجأة أحدث جهاز داخل جيب ليوبولد رنينًا مميزًا فأخرجه وعيناه تتسعان في دهشة، ثم تحولت الدهشة إلى غضب وهو ينظر إلى أخيه ويقول:
- لويب، توجد رسالة استغاثة أُرسِلت للشرطة قبل قليل من مكان ما في هذه الغرفة، ومُرسلها لديه جهاز من أجهزة التنظيم السرية مثل هذا.
- نظر الاثنان إلى بوبي الذي أخذ يتراجع ويتلعثم ولا يقدر أن يتفوه بكلمة، فهجم عليه ليوبولد يفتشه في حين بحث لويب في الأغراض بالغرفة حتى أخرج جهازًا يماثل تمامًا جهاز ليوبولد. قال بوبي مدافعًا عن نفسه:

- هذه رسالة مُفعَّلة تلقائيًا، إذا لم أغلق الجهاز بنفسني قبل ساعة معينة يرسل رسالة استغاثة، فعلت هذا لتأمين نفسي في أثناء اختفائي.

ضغط لويب على أسنانه في غضب وقال:

- ولماذا لم تخبرنا منذ البداية أيها اللعين المخادع؟

وبضربة مركزة، هوى ليوبولد بكعب المسدس على رأس بوبي ففقد وعيه على الفور، وأخذ الاثنان بقية مجموعات أوراق التاروت ووضعها في حقيبتيهما الخاصة وهرعا يفتحان كل درج وخزانة بسرعة بحثًا عن أي شيء خاص ببوبي يمكن أن يؤخذ، وفي حين كان ليوبولد يبحث.. إن اصطدمت قدمه بانبعاج على الأرض الخشبية أحدثه الحريق، أطلق ليوبولد سبّةً وهو ينظر إلى الأرض وكاد أن يرفع بصره ساخطًا لكن عينيه اتسعتا فجأة وانحنى إلى الأرض ومد يده يسحب شيئًا ما بقوة.

- هذا اللعين.

نظر إليه لويب متسائلًا من بين انشغاله في البحث، كان ليوبولد منحنياً على ما يشبه الفجوة في الأرض ويقول:

- هذا اللعين.. هذا اللعين.

فتح لويب عينيه دهشة وغضبًا بدوره لما رأى ما وجد صاحبه الذي أخرج من الفجوة مصفوفات من الصحائف القديمة وهو يقول:

- اللعين.. هذه أصول مخطوطات حقيقية.. بعضها من المخطوطات النادرة التي تحدث عنها.. وهناك كثير غيرها.

قال لويب في ثورة:

- يبدو أن اللعين سرقها من مكنوزات والده، هل عرفت الآن لماذا أقام التنظيم الدنيا ولم يقعدوا للوصول إليه وقطع رأسه؟

وضع ليوبولد جميع المخطوطات في الحقيبة في حين سحب لويب جسد بوبي بعنف عن الأرض وحمله، وخرج الاثنان بأحمالهما خارج المكان كله.